مجلة الدراسات التاريخية
مجلد23 العدد 02 السنة2023 ص ص158/123
E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

الخليفة النَّاصر لدين الله العباسي (575-622هـ\ 1179-1225م)
وجهوده في توحيد الجبهة الداخلية

Caliph Al-Nasir Li-Din Allah (575-622 AH / 1179-1225 AD)
His efforts to unify the home front

الدكتور: محمد عبد الله القدحات
جامعة الشارقة (الإمارات العربية المتحدة)

تاريخ الاستلام: 26 / 08 /2022 **تاريخ القبول**: 21 / 09 /2022

Abstract:

Caliph Al-Nasir Li-Din Allah (575-622 AH / 1179-1225 AD) His efforts to unify the home front Abstract: Al-Nasir Li-Din Allah ascended the throne when the Abbasid Caliphate at a critical stage, where the signs of liberation from the control of the Seljuks began to bear fruit. Those efforts began with the era of Caliph al-Muqtafi, and culminated in the era of al-Nasir in the year (590 AH / 1193 AD) "the Sultanate House in Baghdad." Al-Nasir assumed power, when the society was divided into discordant parties. This is coupled with the absence of the role of scholars, who are the "control group" for the march of society. This vacuum led to the emergence of popular forces such as the bully movements, each of these forces expressed the interests of a group of people, fighting and jostling to achieve their goals, which negatively affected the unity and stability of society. In this anxious atmosphere, Al-Nasir assumed power, and he had to exercise his powers and responsibilities as a Caliph to all. He started by rounding up the different categories. He began with scholars of all sects. Asked for their agreement, until he was able to gather them as an effective and supportive force for his efforts, then he worked to control the armed popular forces (the bully Organizations) after taming their leaders. Which prompted him in the year (604 AH / 1207 AD) to issue a Caliphas decree to unite these organizations into a single organization under his command, regulating and regulating the work of its members. It is regulated and the work of its members is governed by a constitution, drafted by the jurist Ibn al- almiemar, who was known as

the "alfutua" era. This policy reflected positively on his relations with the Islamic regions, especially with the Ayyubid state.
Keywords: the Abbasid Caliphate, Al-Nasir Li-Din Allah, Baghdad alfutua,, the Seljuks.

المؤلف المرسل: محمد عبد الله القدحات
البريد الالكتروني:qadahat@hotmail.com

الملخص:

تولى النَّاصر لدين الله الحكم في مرحلة حرجة من عمر الخلافة العباسية، حيث بدأت بوادر التحرر من سيطرة السلاجقة تؤتي أوكلها. تلك الجهود بدأت مع عهد الخليفة المقتفي، وكللت في عهد النَّاصر عام (590هـ\ 1193م) تولّى النَّاصر الحكم والمجتمع منقسم على نفسه أحزابًا متنافرة، مقرونا ذلك بغياب دور العلماء والتي تعد بمثابة " الفئة الضابطة" لمسيرة المجتمع، حيث انحاز كل منهم إلى أتباع مذهبه. هذا الفراغ أدى الى بروز قوى شعبية كحركات الفتوة التي عبرت كل منها عن مصالح فئات أو أشخاص، تتقاتل وتتصارع لتحقيق أهدافها، مما انعكس سلبًا على وحدة المجتمع واستقراره.

في هذا الجو القلق تولى النَّاصر الحكم، وكان عليه أن يمارس صلاحياته ومسؤولياته على أنه خليفة للجميع، فقد رسم سياسته على تقريب الفئات المختلفة، وإعادة دمجها. بدأ بالعلماء بكافة مذاهبهم وأطيافهم، وكذلك المتصوفة بشتى اتجاهاتهم بل لجأ في البدايات إلى " مداراتهم" إلى أن استطاع جمعهم كقوة فاعلة وداعمة لجهوده، ثم عمل على السيطرة على القوى الشعبية المسلحة (تنظيمات الفتوة) بعد أن روَّض زعمائها، مما دفعه عام (604هـ\ 1207م) إلى إصدار مرسوم خلافي يقضي بتوحيد هذه التنظيمات بمنظمة واحدة تأتمر بأمره، ينظمها ويضبط عمل أفرادها دستور، صاغه الفقيه ابن المعمار والذي عرف بعهد " الفتوة". وقد انعكست تلك السياسة إيجابيًا على علاقاته مع الأقاليم الإسلامية لا سيما مع الدولة الأيوبية.

الكلمات المفتاحية: الخلافة العباسية، النَّاصر لدين الله؛ بغداد؛ الفتوة؛ السلاجقة.

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

- **المقدمة:**

يعد عهد الخليفة الناصر لدين الله أطول العهود التي حكمها الخلفاء العباسيون (575-622هـ\ 1179-1225م). تولى الحكم ولا زالت بغداد تعاني بقايا آثار السيطرة السلجوقية، وكان عليه أن يتصدى للأمر، ويستعيد ما سُلب من حقوق وامتيازات أسلافه من الخلفاء. سار الناصر في سبيل تحقيق ذلك وفق سياسة مدروسة، ووجد أن الخطوة الأولى تتمثل بإصلاح مؤسسات دولته، واختيار رجالها من أصحاب الكفاءة، المقرونة بالولاء[1]، مرتبط ذلك كله بتوحيد جبهته الداخلية التي عانت ويلات الصراعات الداخلية التي خلفتها سيطرة العناصر الأجنبية: البويهيون، ومن بعدهم السلاجقة، فقد اتبع كل منهم سياسات إقصائية وعدائية للفئات التي تتعارض مع مذهبهم وتوجهاتهم، فالبويهيون وبحكم مذهبهم نصروا الشيعة على حساب فئة أساسية في المجتمع (أهل السنة). ولما أزاح السلاجقة البويهيين عن الحكم، مارسوا نفس الدور، فقربوا السنة على حساب الشيعة. فكانت النتيجة تفكيك وحدة المجتمع، حيث حلّ الخصام والاقتتال بين هذه المكونات.

تولى الناصر الحكم وبغداد عاصمة ملكه تعاني من آثار هذا الصراع والتفكك والاقتتال، فكان عليه إعادة الطمأنينة للمجتمع بمختلف مكوناته الدينية والعرقية والمذهبية. إنه بهذا المجتمع ومن خلاله يستطيع تحقيق غاياته وتطلعاته، فبدأ بالأمر خطوة تتلوها أخرى، فقرب العلماء، ليقودوا المجتمع من جديد، وفق سياسته وتوجهاته لا وفق مذاهبهم وانتماءاتهم. في الوقت نفسه لم يغفل عن القوى شبه العسكرية التي كانت مؤثرة في مسار الأحداث" منظمات الفتيان"، بحيث أصبح فتيان كل محلة يشكلون جماعة واحدة، ويتعصبون لمحلتهم. هذا عدا أن الفتوة أصلاً لم تكن جماعة واحدة، فقد " تفرعت وصارت بيوتاً وأحزابا وقبائل"[2] فأدى ذلك إلى

ظهور الفتن والاقتتال بين أتباعها. إن نجاحه في هذين المسارين، مكنّه من السيطرة على قاعدة الهرم الاجتماعي ورأسه.

- **إشكالية الدراسة وأهدافها، والمنهج المتبع:**

على الرغم من كل هذه الجهود التي بذلها النَّاصر طوال فترة حكمه التي قاربت نصف قرن، إلاّ أن بعض المؤرخين الذين أثنوا عليه وعلى سياسته، أشاروا إلى ظلم تعرض له المجتمع في عهده، وإلى اشتغاله بغير المفيد من الأمور كالفتوة ونحوها، لم يدركوا عظم المهمة التي كانت ملقاة على عاتقه، فقد تسلم تركة مثقلة بعوامل الضعف والفرقة، مقرونة بغياب دور الخلافة عن ممارسة نفوذها منذ أمد بعيد. تتمحور إشكالية الدراسة في الإجابة على التساؤل التالي: كيف استطاع الناصر لدين الله استعادة سلطته وإحياء مؤسسة وما هي أبرز معالم سياسته في توحيد الجبهة الداخلية؟

ولتحقيق هذا المسعى هدفت هذه الدراسة إلى نقد تلك الروايات التاريخية، ووضعها في سياقها الزمني والموضوعي، فلا يمكن التعميم على عهد طويل لمجرد حادثة سواء أكانت إيجابية أم سلبية.

إن المنهج المتبع في الدراسة هو المنهج التاريخي القائم على جمع الروايات وتحليلها، مع محاولة بيان توجهات أصحاب الروايات وميولهم؛ لأن في ذلك بيان للحقيقة. وقد عبَّرَ ابن خلدونَ عن هذا بقولهِ: " وكثيرًا مَا وقعَ للمؤرِّخين والمفسِّرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع؛ لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثًّا أو سمينًا، ولم يَعرِضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبرها بمِعيارِ الحكمة، والوقوف على حقائق الكائنات، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبارِ، فضَلُّوا عَن الحقِّ، وتاهوا في بَيْداءِ الوهم والغلط.[3]

- وقد قسمت الدراسة إلى المحاور التالية:

أولا: التعريف بالخليفة النَّاصر لدين الله

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

ثانيا: ظروف العامة المحيطة بتولي النَّاصر لدين الله الحكم

ثالثا: النَّاصر وتوحيد قيادة المجتمع (العلماء)

رابعا: النَّاصر وضبط تيار التصوف

خامسا: الناصر وتوحيد حركات الفتوة

سادسا: النَّاصر ومعاش الناس وأرزاقهم

سابعا: تقييم سياسة الناصر لدين الله في ضوء روايات المؤرخين

أولا: التعريف بالخليفة النَّاصر لدين الله:

أبو العباس أحمد النَّاصر لدين الله بن المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله أبي عبد الله بن المستظهر بالله أبي العباس بن المظفر يوسف بن المقتفي أبي العباس محمد بن المقتدر، وينتهي نسبه بالعباس بن عبد المطلب[4]. ولد في رجب سنة (553هـ/1158م)، وخَطب له بولاية العهد قبل موت والده المستضيء بثمانية أيام، وبويع بالخلافة يوم وفاة والده غرة ذي القعدة سنة (575هـ\1175م)[5].

وبعد أن استقر الأمر له في بغداد، بعث الناصر برسله إلى ملوك الأطراف مبشرين بخلافته، وطالبًا البيعة منهم[6]. كان صلاح الدين الأيوبي أول من استجاب وبايع، وخطب للخليفة في جميع بلاده[7]. كما أرسل رسلاً إلى همذان وأصفهان والري والموصل للغاية نفسها[8].

حكم النَّاصر قرابة سبع وأربعين سنة، وهو بذلك أطول خلفاء بني العباس حكمًا. واستمر في منصبه إلى أن تُوفي ليلة الأحد مطلع شوال سنة 622هـ\ 1225م[9].

تعد فترة حكم النَّاصر أطول مدة حكم في تاريخ العباسية، شهدت تتويجًا لجهود سابقيه من الخلفاء،[10] تمثلت في تحرير دار الخلافة من بقايا السيطرة السلجوقية، تلك السياسة التي سار عليها عدد ممن سبقه من الخلفاء لا سيما الخليفة المقتفي

(530 -555هـ\ 1135-1160م)ل اذي استغل بوادر الضعف والانقسام الذي حلَّ بالبيت السلجوقي بعد وفاة السُّلطان ملكشاه (ت485هـ\ 1092م)[11]. ففي سنة (552هـ\ 1157م) استطاع المقتفي التخلص من سيطرتهم على بغداد، بعد إفشاله للحصار الذي فرضه السُّلطان محمود عام عليها قرابة الشهرين[12]

وفي خطوة مشابهة، نجح النَّاصر في إنهاء الوجود السلجوقي بالعراق[13]. كما استطاع استعادة عدد من المدن والأقاليم لسيطرته، فخلال الفترة (579- 591هـ\ 1183-1194) تمكن من استعادة: دفوقا، وحديثة عانة، وإقليم خوزستان وأصبهان[14].

ليس المجال هنا للتفصيل بالحديث عن خلافة النَّاصر إلا بالقدر الذي يُعرِّف بشخصه، فالمصادر – لا سيما المستخدمة في الدراسة- حافلة بذلك، والراغب بالأمر يمكنه الرجوع إليها.

ثانيا: الظروف العامة المحيطة بتولي النَّاصر لدين الله الحكم:

تولى الخليفة النَّاصر الحكم في مرحلة صعبة من عمر الخلافة العباسية، تلك المرحلة التي حاولت فيها النهوض والتحرر من سيطرة السلاجقة، مستغلة حالة الضعف والانقسام التي دبت في البيت السلجوقي، والذين - رغم حالة الضعف التي كانوا يعيشونها في أيامهم الأخيرة- ظلت فكرة السيطرة على النَّاصر حاضرة في أذهان حكامها، إلى أن قضى النَّاصر على ذلك الحلم للمرة الأخيرة عندما أصدر أوامره بنقض دار السلطنة (رمز السلطة السلجوقية) ببغداد سنة (583هـ \ 1187م) ردًا على تهديد السُّلطان طغرل، الذي طلب إلى الخليفة تجديد الدار؛ ليسكنها إذا دخل بغداد[15].

في الوقت نفسه كان حكام البيت الأيوبي في الشام ومصر يحاولون البقاء مستقلين عن نفوذ الخلافة العباسية، مع الحفاظ على الروابط التي تمنحهم الشرعية، ونقصد بذلك الخطبة والدعاء للخليفة مقابل مرسوم التولية الذي يمنحهم الشرعية الدينية أمام أتباعهم. وهذا ما يتضح من سلوكهم في مصر، فعلى الرغم من إزالتهم الحكم الفاطميين " الشيعي" سنة 567هـ\1171م[16]، واستبدال

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

رمز السلطة الشِّيعي بالرمز السُّنّي " الخلافة العباسية" إلا أن الأمر لم يتعد التبعية الإسمية لبغداد. ومع ذلك، فقد قامت العلاقة بين الطرفين على أساس المصالح المشتركة، فصلاح الدين كان بحاجة إلى دعم الخلافة، حتى لو كان ذلك الدعم اسمياً، أما من جانب الخلافة فقد نظرت بارتياح إلى جهود صلاح الدين في استئصال جذور التشيع بعد إزالة الدَّولة الفاطمية، وتوطيد أركان الدعوة للخلافة العباسية في مصر من جديد[17] وأن تلك الجهود ترسخ الشرعية للخلافة في نفوس أتباعها، على اعتبار أن ما يحققه صلاح الدين ما هي إنجازات للخلافة باعتباره نائبا عن الخليفة في حكم بلاد الشام ومصر.

يضاف إلى ذلك، أن الناصر أراد أن يمتد بنفوذه إلى الأقاليم الإسلامية، وفرض سلطته بين القوى الحاكمة فيها، ومحاولة إحلال السلام بينهم ومنع الاعتداء، وإحلال الهدوء في الأقاليم التي يسيطرون عليها، وبالتالي كسب احترام قياداتهم ورعايا بلادهم، وإثبات وجوده كقوة روحية، يُرجع إليها عند الخلاف بين الفئات المسلمة. ولأداء هذا الدور الذكي والمعقد كان على الخليفة أن يتمهر في ناحتين، أولهما تطوير قدراته الاستخبارية، بحيث يغدو عارفًا بكل تفاصيل العلاقات والخلافات بين القوى المختلفة، وثانيهما أن يمتلك القدرة على التأثير معنويًا على الزعامات الإقليمية والأسرية. وقد أفلح الخليفة في كلا الجانبين[18].

وعند الالتفاف إلى الوضع الداخلي في حدود دولته التي ورثها (بغداد وعدد من المدن) فالصورة أكثر قتامة، حيث الانقسام المجتمعي الممزوج بالتوتر كان هو السمة العامة، والذي بدوره قسم المجتمع فرقًا ومذاهبَ شتى، كان نتيجتها تشكل مجتمعات محلية منغلقة على نفسها، قائمة على الانتماء المذهبي[19]. ولم يتوقف الأمر عند ذلك، بل تطور الخلاف بين هذه الكيانات إلى فتن واقتتال طائفي، دمَّر

كينونة المجتمع ووحدته، وانعكست أثاره السلبية على البنية التحتية بفعل ما كان يخلفه الاقتتال من تدمير للمنشآت العمرانية، وحرق للأسواق، وكان ذلك التنفيس يتم من خلال الاستعراضات التي يقوم بها أتباع تلك التيارات في محلات وشوارع بغداد، كل منها يريد فرض سطوته على الآخر، وزياده في المضايقة للآخر كانوا يلجأون إلى سياسة التأزيم من خلال نقل استعراضاتهم للمحلات المجاورة التي يسكنها أبناء الطائفة الأخرى، فسرعان ما يتحول الأمر إلى ميدان عسكري تستخدم به القوة بأشكالها المختلفة. والإنسان بطبعه لا يقبل المهانة، فتكون ردة الفعل مشابهة، وربما تكون أعنف، فكثر القتل للبشر، والتدمير للبنى التحتية من حرق وتهديم، وهذ ما استفاضت المصادر بالحديث عنه خاصةً بين المكونين الرئيسيين: السنة والشِّيعة. من ذلك ما ذكره ابن الساعي في حوادث سنة (601هـ/ 1204م) حيث اجتمع عوام محله باب الأزج، وخرجوا لصيد السباع، فلما عادوا بصيدهم، والذي اعتبروه رمزًا لقوتهم، عزموا إلا يعود إلى محلتهم إلا بعد الطواف واستعراض قوتهم بعدد من المحلات المجاورة، فكان رد أهل محلة المأمونية أن منعوهم من الاجتياز، مما أدى إلى تطور الأمر بين الطرفين حتى تقاتلوا بالسيوف[20]. ثم يتكرر الأمر بعد أيام بين أهل محلتي قطفتا[21] والقُرية[22]،ولم يوقف الاقتتال بينهما إلا بعد تدخل جند النَّاصر[23].

إن هذه الحالة المتأزمة التي عاشها المجتمع العراقي ليست وليدة اللحظة، بل هي تراكمات تشكلت مع مرور الزمن منذ أن استولى البويهيون على الحكم ببغداد قرابة قرن من الزمن، فقد اتبعوا سياسات عنصرية مع مكونات المجتمع، قربوا الشِّيعة على حساب السُّنَّة، فروجوا لمبادئ المذهب الشيعي واعتبروه المذهب الرسمي للدولة ففي هذه الفترة جرى نشر عقائد ومعارف الشيعة خاصه ما يتعلق منها بالحكم والنَّاصر. أضف إلى ذلك بروز الخلاف بين السنة والشيعة إلى العلن، واستخدام العنف تعبيرا عن ذلك، فبعد دخول البويهيين بغداد بأربعة أعوام إي في العام (348هـ\959م) وأخذت هذه الفتن تتوالى دون أن يعمل البويهيون على معالجتها[24]، ووضع حد لانتشارها، بل الأخطر من ذلك، كان انحيازهم للشيعة بشكل علني

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

ورسمي، بعد إصدار معز الدَّولة البويهي قرارًا رسميًا برعايته لمراسيم إحياء عاشوراء، بل ألزم الناسَ إغلاق الأسواق ومنع البيع، " وأخرجوا نساء منشّرات الشعور مُصَخَّمات يلطمن في الشوارع ويُقِمْن المآتمَ على الحسين"[25]. وفي العام نفسه أيضًا كانت البداية الرسمية لإحياء الاحتفالات بغدير خُمّ[26]. ثم جاء السلاجقة، فمارسوا سياسة أسلافهم، فأقصوا الشِّيعة وقربوا السُّنَّة، ومارسوا مع الشيعة ما مارسه البويهيون مع السنة من قبل. كانت هذه المعضلة قد أرقت الخلفاء الذين سبقوا عهد الناصر، وعملوا قدر استطاعتهم على ردم الفجوة، لا سيما في عهد المقتفي (530-555هـ\11601135م).

ولم يتوقف أمر الانقسام الى سنة وشيعة، بل أن كل فئة من الفئتين انقسمت على نفسها، ولعل في المثال التالي دليل على روح التنافس والخصام، فما أن تسامع أحناف بغداد برغبة نظام الملك السلجوقي إنشاء المدرسة النظامية، ووقفها على أتباع المذهب الشافعي حتى شرع الأحناف من ساعتهم يسابقون الزمن لإنشاء " مدرسة أبي حنيفة" بباب المعظم، ونجحوا في ذلك، حيث فتحت مدرستهم قبل النظامية بعدة أشهر، وكان ذلك سنة(459 هـ / 1066م)[27]. وكان لهذا التنافس دوره السلبي حيث تسابق أتباع كل مذهب في هذا المجال، فشيد أتباع كل مذهب المدراس الموقوفة على أبناء المذهب دون غيرهم. ثم اتسعت الشقة في هذه المسألة بحيث لم يقتصر حصر المنفعة على اتباع المذهب على المدارس فحسب، بل شمل مختلف المرافق الوقفية: كتب ومكتبات، ربط ونحوها[28].

وزادت خطورة الموقف عندما قربت مؤسسة الخلافة (قبل الناصر) أتباع مذهب على حساب المذاهب الأخرى، فنصرت أهل الحديث "الحنابلة"، وأسندت لهم المناصب المختلفة لا سيما الدينية منها، وحرمت أتباع المذاهب الأخرى، وهذا ما خلق

حقدا كامنا سرعان ما كان ينفجر في أول مواجهة علنية، وقد أسهم هذا الأمر في اضطهاد أصحاب الفكر والعقل بتهمة " تعاطي علوم الأوائل" بل أكثر من ذلك، فقد كان مجرد الاشتغال بعلوم الفلسفة والمنطق مضنة للتشكيك بعقيدة اصاحبها، وكثير ما ترد تلك العبارات في تراجم العلماء: " وكان يميل إلى علوم الأوائل في الفلسفة، فقدح في دينه ومقت لذلك"[29]. " واشتغل بشيء من علوم الأوائل، وخالط بها من أفسد حاله "[30]. "ثم أقبل على علوم الأوائل وبلاياهم، حتى صار يضرب به المثل في ذلك"[31]. وقد لخص المسألة برمتها كمال الدين موسى بن أبي الفضل الموصلي (ت639هـ\1241م) وكان عالما بالفلسفة والمنطق، عندما جاءه الحافظ ابن الصلاح الشهرزورى لتلقي شئنا من علوم الفلسفة، " فقال له: يا فقيه، المصلحة عندي أن تترك الاشتغال بهذا الفن. فقال له: ولم ذلك يا مولانا؟ فقال: لأن الناس يعتقدون فيك الخير، وهم ينسبون كل من اشتغل بهذا الفن إلى فساد الاعتقاد، فكأنك تفسد عقائدهم فيك، ولا يحصل لك من هذا الفن شيء، فقبل إشارته وترك قراءته" [32].

والأخطر من ذلك أن هذا الاتهام غدا مصدرَ اضطهاد وعقوبة تستغل لمن اعتبرته السلطة مصدر إزعاج، أو من أردت التخلص منه، وكانت هذه التهمة تعني الاتهام في العقيدة، الذي يتوجب محاكمة وعقوبة، ومثل هذا تعرض له عبد السلام بن عبد القادر الجيلاني، الذي نُكِّل به " وكُبِسَت داره، وأخرج منها كتباً من كتب الفلاسفة ورسائل أخوان الصفا" وبحضور العلماء، وقف الفقيه والمؤرخ ابن الجوزي يستعرض عناوين ما وجِدَ بمكتبة الجيلاني، متهمًا إياه بالفسق، وبناءً على ذلك أصدر القاضي أمام الحضور وبصورة درامية قراره بعزله من منصب التدريس بمدرسة جده الشيخ عبد القادر الجيلاني، بعد أن نزع طيلسانه، وكان كل ذلك بتحريض من أحد رموز السلطة: الوزير عبد الله ابن يونس الحنبلي الذي أراد أن يصفي حسابه مع أسرة وأبناء الشيخ عبد القادر الجيلي([33]). لم ينتهِ عند ذلك، فما هي الا بضع سنين، حتى تبدلت الأحوال، فيعزل ابن يونس، ويتولى الوزارة محمد بن علي

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

بن القصاب، الذي مارس السياسة الانتقامية، فسعى في تصفية خصمه ابن يونس وأتباعه، فكان من جملة من تعرض للتنكيل الفقيه الحنبلي ابن الجوزي، فقد أمر بنفيه وحبسه خارج بغداد[34].

وقد لعب - كما في المثال السابق وكذلك في الموقف التالي- رجال الدَّولة دورا في إذكاء هذه الأحقاد الطائفية، فنجد نفوذ ابن الصاحب (الشيعي) كبيرًا في أيام خلافة النَّاصر الأولى، والذي كان يسعى لتقوية ذلك النفوذ، مستغلًا مكانته لدى أتباعه من الشِّيعة، حتى أنهم تجرأوا على لعن السيدة عائشة أم المؤمنين أمام شباك حجرة الخليفة. وقد كان ذلك الموقف سببًا في تخلص الخليفة منه عندما حانت له الفرصة سنة(583هـ/1187م)[35].

ولم يوقف الامر على ذلك، بل نجد تدخلا من كبار الفقهاء في سياسة الدَّولة، وتعاملها مع مكون اجتماعي له حضوره الاقتصادي والعلمي في بلاط دار النَّاصر، ونقصد بهم " أهل الذمة" فهذا الفقيه محي الدين أبي عبد الله بن فضلان [36] صاحب الحضور في المجتمع البغدادي، يكتب رسالةً إلى الخليفة يبين فيها مكانتهم على حساب المسلمين، ويبدو أن هذه لرسالة كانت تلقى دعما من عامة المسلمين، مما اضطر الخليفة عام (579هـ\ 1183م) إلى إصدار مرسومه الذي منع بموجبه استعمال أهل الذمة في دواوين الدَّولة فـ" برز الأمر الشريف بأن لا يستخدم في الديوان كتاب النصارى ولا أحد من أهل الذمة ". ومع احتجاج استاذ الدار على الأمر، " إن هذه الحال يحتاج إلى التأمل في حال من يرتب، وفي الصبر على هؤلاء للكتاب إلى أن يؤخذ ما عندهم من أصول الأموال بحيث لا يعلمون ولعلهم إن علموا أسقطوا كثيرا من حقوق الديوان". لكن النَّاصر- رغم إدراكه خطورة الموقف، إلا أنه وأمام موقف الفقهاء وجد نفسه مضطرا لذلك " فوقع إليه النَّاصر لدين الله ما إلى

هذا سبيل"[37]. وقد تباهى المؤرخون بهذه الخطوة حتى عدّها الأيوبي " من مكارم أخلاق أمير المؤمنين النَّاصر لدين الله لأنه لم يسبق لها ولم يعتمدها سواه"[38].

ومع ذلك، نجد الخليفة النَّاصر يصل لقناعة بخطأ قراره الذي اضطر إلى اتخاذه إرضاءً لعلماء السُّنة، لا سيما أن المهام التي كانوا يقومون بها في مجال الصيرفة والدواوين المالية لم يستطع من تولاها من المسلمين النجاح في الأمر، مما دفع الخليفة بعد فترة من الزمن إلى إعادة استخدامهم من جديد، ولعل فيما أورده ابن الساعي من خبر وفاة أبي غالب أبي طاهر بن شبر اليهودي في حوادث سنة (601هـ/1204م) فقد أشار أنه توفي وهو يتولى دار الضرب[39].

ثالثا: النَّاصر وتوحيد قيادة المجتمع (العلماء)

كان العلم والعلماء الميدان المناسب لكسب المزيد من الدعم والمساندة، لذا نجد سياسة النَّاصر لدين الله انتهج سياسة "إنتاج" فئة من العلماء المؤيدين له ولسياسته، بل والذين سيتحولون إلى أداة إعلامية يستطيع من خلالها تنفيذ ما يهدف إليه لا سيما أنه كان مدركًا ومشاهدًا لمدى تأثير العلماء في العامة.

مِنَ السذاجة تسطيح أمر اهتمام النَّاصر بالعلم والعلماء على أنه مجرد محاولات يبتدئها من يتولون السلطة، ثم سرعان ما يتخلون عن هذا النهج بعد أن تستقر أمور حكمهم. لذلك نجده يضع خطة محكمة وبعيدة المدى لكسب ولاء العلماء وتقريبهم له، فبعد توليه الحكم، سلك النَّاصر منهج التصنيف في علوم الحديث، فصنف كتاب " روح العارفين في سيرة سيد المرسلين"[40] ضمنه سبعين حديثًا. وما أن فرغ من تصنيفه للكتاب حتى دعا كبار علماء وفقهاء المذاهب الأربعة ليجيزهم بروايته عنه. وكان نص الاجازة:" أجزْنا لهم ما سألوا عَلَى شرط الإِجازة الصّحيحة، وكتبَ العبد الفقير إِلى الله أَبُو العَبَّاس أَحْمَد أمير المؤمنين، فمنح الإجازة إلى كبار علماء المذاهب الأربعة: الشيخ ضياء الدين أحمد بن مسعود التركستاني، شخ الأحناف، وإجازة الشافعية إلى عبد الوهاب بن سكينة، وإجازة المالكية إلى على بن جابر المغربي، وإجازة الحنابلة إلى أبي صالح نصر بن عبد الرزاق الجيلي[41].

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

كان هدف النَّاصر من الكتاب وإجازته هو إظهار أحد الشروط الواجب توفرها بالإمام، وهي العلم بالأحكام الشرعية. لذا، ولمزيد من نشر الكتاب، أصدر الخليفة أوامره بأن يقرأ في جميع أحياء مدينة بغداد، وكذلك المدن والبلدات الخاضعة لسلطة الخليفة. ثم انتقل الأمر لنشر الكتاب في الأقاليم المعلنة شرعية النَّاصر والتبعية لها في عواصم بلاد الشام: حلب، ودمشق، وبيت المقدس، ومصر، إضافة الى بعض عواصم المشرق كنيسابور وهمذان، ومرو. وكذلك بلاد الحرمين الشريفين. وقد أسندت مهمة إجازته نيابة عن الخليفة في بعض ما سبق من المدن إلى الفقيه والمؤرخ محب الدين أبو عبد الله محمد بن محمود البغدادي (ت 643هـ/ 1245م). قال ابن النّجّار: شرّفني بالإجازة، فرويتُ عنه بالحَرَمَين، وبيتِ المقدس، ودمشقَ، وحلبَ، وبغدادَ، وأصبَهَان، ونَيْسَابُور، ومَرْوَ، وهَمَذَانَ. ثمّ روى عنه حديثًا بالإجازة التي أذِن لَهُ بخطِّه[42].

ولم يتوقف الأمر على ذلك، بل نجد علماء كبار يقومون بشرح "روح العارفين" فصنف سبط ابن الجوزي بناءً على طلب الملك الأشراف شرحًا للكتاب [43]، ومما يدلُّ على أن الأمر كان ممنهجًا أن بعض العلماء المعترضين على ما جرى كانوا مدركين لذلك لهدف النَّاصر، وقد أورد الذهبي ذلك صريحًا " وما غَرَضهُم العلو ولا الإسْنَاد، بل غرضُهم التّفاخُرُ، وإقامة الشعار والوَهْم"[44].

ولما وجد النَّاصر أن الحنابلة هم أصحاب السطوة عند توليه الحكم، نجده يبدأ باستمالتهم واستقطابهم، فيقوم بشرح مسند الإمام أحمد بن حنبل، ويجيزه لعدد من علماء الحنابلة بروايته عنه. وفي خطوة أجرأ مما سبق، نجده يصدر أمره سنة (608هـ\1212م) بأن يُقرأ مُسْنَد الإمام أَحْمَد بمشهد موسى بْن جَعْفَر بحضرة صفيّ الدّين محمد بن سعد المُوسويّ، بالإجازة له من النَّاصر لدين الله[45].

ثم اتجه النَّاصر الى المذاهب الأخرى، فنجده يقرب أتباع المذهب المالكي، فيقوم بدور العالم الذي يجيز موطأ مالك لعلي بن جابر المغربي، والذي بدوره رواه عن الخليفة في مجلسه العلمي بجامع القصر ببغداد[46].

أما الشّاَفعية، فقد وصل تقريبهم منه أن سمح لكبار فقهاء المذهب أمثال رضي الدين القزويني[47] بالجلوس بباب بدر – الذي يمثِّل جزءًا من حَرَمِ دار النَّاصر – لعقد مجالس وعظهم، والتي يحضرها الخليفة من شُبّاك دار النَّاصر[48].

إضافةً إلى كل ما سبق، فإن صاحب السياسة يحتاج الى الدعاية التي تظهر عظمته وتنشر مأثره، كما يحتاج اليها ليدفع بها عن سياسته وتوجهاته، وليثبت بها مركزه، ويدفع بها سعايات خصومه ووشاياتهم، وما دام الشعر خير من يحقق هذه الاغراض لأصحاب السياسة؛ لذا، وإدراكًا من الخليفة النَّاصر لأهمية الشعراء ودورهم في صياغة الخطاب الموجه للناس، نجده يستميلهم ويجعلهم ضمن حاشيته، بل أكثر من ذلك، يستحدث لهم ديوانا خاصاً في الدَّولة يسمى ديوان الشعراء [49]. وقد ضم الديوان كبار الشعراء في ذلك العصر، تأتيهم الأعطيات العينية والمالية من بيت المال[50].

ونلمس دور هؤلاء الشعراء في الترويج لكثير من الآراء والقضايا السياسية التي لا يستطيع التعبير عنها غيرهم، مثل نظرية الحكم المطلق، وأحقية بني العباس بالنَّاصر باعتبارهم أصحاب النَّسَب الرفيع ووارثي النبوة. يقول سبط ابن التعاويذي[51]:

خليفـــة طاعـــة الـــرحمن طاعتـــه ... حقـــا وعصـــيانه لله عصـــيانُ
إذا تَمسّـــكت فـــي الـــدنيا بطاعتـــه ... فمـــا لســـعيك عنـــد الله كفـــرانُ

كما حرصوا على التأكيد على صلة الخلفاء العباسيين بالرسول ﷺ[52]:

آلُ النّبـــوة بُردهـــا وقضـــيبه ... لكـــم ومنبرهـــا معـــا وحســـامها
أبنـــاء عـــمّ مصـــطفى الهـــادي وخيـــ ... ـــرِ عِصـــابةٍ ووطـــئ الثَّـــرى أقـــدامها

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

رابعا: النَّاصر وضبط تيار التصوف

وفي خطوة مشابهة، نجد النَّاصر يلتفت بجدية لتيار واسع الانتشار في المجتمع الإسلامي خلال هذه الحقبة لا سيما في بغداد، ونقصد به تيار التصوف، فقد غدا شيوخ التصوف والطرق المختلفة قادة من قادة الرأي المؤثرة في مسارات الحياة اليومية للمجتمع، فرضوا هذه السلطة بسلوك الزهد المقرون بمظاهر التعبد والابتعاد عن مشاغل السياسية، لكن من خلال هذه العلاقة الوطيدة بين الشيوخ ومريديهم واتباعهم يمكن أن تسخر تلك الطاقات لصالح مشروع النَّاصر. وحتى يتحقق الأمر كان لا بد للخليفة من التقرب منهم، ومنحهم إحساس بالطمأنينة، وهنا بدأ تطبيق هذه الغاية سلوكا ليقنع كبار مشايخ الطرق قبل اتباعهم بحسن نوايه. كان إنشاء مجموعة ربط ببغداد تنفيذا عمليا لسياسته التقاربية مع أهل التصوف، فأمر بإنشاء مجموعة من الربط: الأخلاطية[53]، وكذلك رباط الحريم الطاهري[54]. وأكثر من ذلك أظهر النَّاصر احترامًا لعادات المتصوفة وطقوسهم في مجالسهم، فكان إذا حضر مجالسهم تزيا بزيهم[55].

وظهر أن سياسة التقريب مع المتصوفة أتت أكلها عندما استطاع إقناعهم بتقنين التصوف من خلال استحداث منصب شيخ الشيوخ. كان الهدف المعلن من وراء هذا المنصب تنظيم أمور الصوفية وطرقها، وحل الإشكاليات التي تحدث بين أتباع تلك الطرق. ولكن حقيقة الأمر أن النَّاصر أراد أن يضبط هذا التيار الواسع انتشاره عددًا ونفوذًا، والذي كان يميل الى السلبية وعدم المشاركة الفاعلة بمناحي الحياة الا بالقدر الذي يحقق أهداف الطريقة أو الجماعة من المتصوفة. في الوقت نفسه، حرص النَّاصر على إسناد المنصب إلى أحد كبار شيوخهم ممن ارتضتهم عامة المتصوفة. وقد نجحت سياسة النَّاصر الى حد كبير فغدا هؤلاء الشيوخ ضمن

منظومة الحكم التابعين لسلطة الخليفة، والمنفذين لسياسته كلما تطلب الأمر ذلك[56].

وأكثر من ذلك، استطاع النَّاصر دمجهم ضمن المنظومة الإدارية، حتى وجدنا عدد ليس بالقليل منهم يتولى وظائف رسمية في جهاز الدَّولة لا سيما الوظائف الدينية، وكان تركيز مؤسسة النَّاصر على استقطاب كبار مشايخ الطرق الصوفية لا سيما مشايخ الطريقة القادرية، فقد أسند النَّاصر إلى الشيخ عبد السلام بن عبد الوهاب مهمة النظر في أوقاف المارستان العضدي، ثم ولاه مسؤولية كسوة الكعبة [57]، وتولى أبو صالح نصر بن أبي بكر بن عبد الرزاق الجيلاني العديد من المناصب في خلافة النَّاصر إلى أن تولى منصب قاضي القضاة في عهد الخليفة الظَّاهر[58].

لم تتوقف سياسة النَّاصر على التقرب من الصوفية ومشايخهم، بل نجح كذلك في دمجهم في السياسة، وهذا ما نلحظه من خلال جعلهم ضمن حاشيته ومجلسه، وإسناد مهمة السفارة لبعضهم، فقد كانوا سفراء خاصين لبعض الحكام المسلمين المنضويين تحت سلطة النَّاصر، بل أكثر من ذلك، نجده يعهد إليهم التدخل باسمه لحل إشكالات كانت تقع بين أولئك الحكام، مثال ذلك الوساطة التي قادها شيخ الشيوخ شهاب الدين السهروردي لحل الخلاف الدائر بين صلاح الدين الأيوبي وصاحب الموصل، بعد حصار الموصل من قبل صلاح الدين سنة (579هـ/1183م). وبناءً على استنجاد حاكمها بالخليفة، أرسل الناصر شيخ الشيوخ السهروردي لحل الأمر، وبعد مفاوضات، فُك صلاح الدين الحصار على شروط ضمنها السهروردي[59].

ومن مظاهر الاهتمام والاحترام لرجال التصوف، التكريم الرسمي من ديوان دار الخلافة، بحيث يجري لهم استقبالا رسمي إذا ما حضر أحدهم إلى بغداد، وهذا التكريم أشار إليه ابن النجار في ترجمة الشيخ عبد الواحد بن عبد الوهاب المعروف بابن سكينة(ت608هـ/1211م) حيث خرج موكب الديوان للقائه خارج بغداد [60].

لقد كانت سياسة الناصر التوفيقية مع المتصوفة، آثارها في ضبط المجتمع، لا سيما العامة، والتخفيف من المشاكل التي كانت تعكر وحدة النسيج الاجتماعي،

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

ويؤيد ما ذهبنا إليه أنه لما وقعت الفتنة العظيمة بين أهل محلتي: باب الأزج المأمونية[61] سنة (601هـ/1204م) وبعد محاولات فاشلة لإخماد هذه الفتنة، لم تجد أفضل من الشيخ عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلاني للتدخل في حلها، والذي استطاع إخماد الفتنة بعد أن جمع رؤوسها وتوعدهم[62].

خامسا: الناصر وتوحيد حركات الفتوة

كان هناك تيار جارف عانت منه بغداد وغيرها من المدن داخل العراق وخارجه، ونقصد به تيار الفتوة والفتيان الذين يثيرون القلق والاقتتال بين أهل المحال، ولا يهدأ الأمر إلا بعد وقوع قتلى من الطرفين، ثم يتجدد من جديد لأجل الانتقام. كان اتباع هذه التنظيمات متشتتين بعضهم يتبع لبعض الطرق الصوفية أو مرتبط بشخوص لهم مصالحهم التي يحققوها من خلال إثارة الحمية في نفوس أتباعهم من الفتيان. وهنا نجد النَّاصر وبعد توليه الحكم بثلاث سنوات أي سنة (578هـ\ 1182م) انتظم في أحد أشهر تنظيمات الفتوة والتي كان يرأسها الشيخ عبد الجبار بن يوسف بن صالح البغدادي، ثم أمر الخليفة بإنشاء دار قريبة من دار الخلافة، يسكنها عبد الجبار، وحرص النَّاصر على التردد على الشيخ، يفاوضه ويحدثه في أمر الفتيان والفتوة. وفي خطوة أولى في سيطرته على تنظيمات الفتيان، نجد الناصر يعلن انضمامه الى تنظيم الفتوة باحتفال رسمي حضره كبار رجال دولته، فقام الشيخ عبد الجبار بإلباس النَّاصر سراويل الفتوة ثم شرب الخليفة شراب الفتوة، المكون من الملح والماء[63].

كان لانضمام رأس الدَّولة " الخليفة النَّاصر" إلى الفتوة أثره البالغ في انتشار هذا التنظيم في بغداد وغيرها من مدن العراق، بل في الأقاليم الإسلامية الأخرى. وفي خطوة أكثر تنظيميه نجد النَّاصر يعهد لأحد الفقهاء الحنابلة بتصنيف دستور لهذا

التنظيم، فصنف الفقيه ابن المعمار كتاب الفتوة الذي حدد به كل ما يتعلق بهذا التنظيم من شروط الانضمام وواجبات الفتى وحقوقه، ومتى تسقط الفتوة عن صاحبها وغر ذلك من الإجراءات التنظيمية. وقد أشار ابن المعمار في مقدمة كتابه الى الدافع لتصنيف الكتاب قائلاً[64]: " اعلم أيها الناظر أن الباعث على إصدار هذا الكتاب أني رأيت جملة الناس وجمهورهم وأفاضلهم وصدورهم قد أولعوا بذكر الفتوة والهجوا بها راغبين في فضائلها، راجين نيل طاعتها، خصوصا حين أحيا سننها ومعالمها سيدنا ومولانا أبو العباس أحمد النَّاصر لدين الله".

وعلى الرغم من انضمام الخليفة للفتوة، إلا أن الأمر لم يكن مثاليًا، حيث تكررت الأخطاء ووقع الكثير من الاقتتال بين أحزاب وبيوت الفتوة. وهذا ما دفع النَّاصر بعد أن استحكم الأمر بيده أن يتخذ قرارا عام (604هـ/ 1207م) بإهدار الفتوة القديمة وحل جميع تنظيماتها، وإصدار مرسوم خلافي حدد فيه أحكام الفتوة وآدابها[65].

وهنا ملاحظة غاية في الأهمية تتمثل في حرص الناصر على إظهار سند الفتوة، وأنها تنتهي إلى الإمام علي بن أبي طالب[66]. كان الهدف واضحا من هذه النسبة، بأن الخليفة أراد إدماج مكون أخر ضمن الفئات المجتمعية التي تدين له بالولاء والتبعية ونقصد بهم الشِّيعة، فالأمام على شخصية معتبرة ومقدَّرة لدى عامة المسلمين: سُنَّهم وشِّيعتهم. وهذا يعطي النَّاصر السند والسلطة الأدبية والروحية، وذلك لأنه رئيس تنظيم يرجع في أصوله إلى الإمام علي بن أبي طالب [67].

إضافة إلى ما سبق، أراد النَّاصر تحقيق هدف هام من وراء إحيائه لنظام الفتوة يتمثل بربط جميع رعايا الدَّولة بشخص الخليفة، سواء كانوا حكاماً أو محكومين. ومن خلال فكرة الفتوة استطاع أن يجمع المسلمين تحت لوائه على مختلف طبقاتهم ومعتقداتهم، فجمعت الفتوة بين السنة والشيعة، وبين الخاصة والعامة. إضافة إلى أنه استطاع من خلالها تعزيز مكانته وفرض هيبته كونه خليفة للمسلمين المفترض الطاعة على الخلق أجمعين، وكونه قبلة الفتوة ورأسها[68]. ومن هنا حرص النَّاصر على إدخال ملوك الأطراف في فتوته وربطهم به شخصياً لتأكيد هذه السلطة [69].

إذاً فإن الاهتمام الكبير الذي أولاه النَّاصر للفتوة كان سببه تحقيق أهداف وغايات كبرى، تؤدي إلى توحيد الأمة وتربيتها تربية متكاملة، وجمع جهودها لنهضة شاملة ليعيد من خلالها للخلافة بعض أمجادها، وقوتها التي فقدتها منذ قرون.

إن المتفحص للأمر سيلحظ بدقة أن جهود الخليفة في هذا المجال لم تكن عبثية، بل كانت خطة مدروسة، خَلفها عدد من المستشارين، كان الهدف منها إعادة اللحمة للمجتمع الذي عصفت به أنواء الخلافات المذهبية، وشرذمته إلى مكونات عرقية وقومية ومذهبية، كل فئة تتربص بالأخرى، يتقاتلون لأتفه الأسباب. هذا الاقتتال الذي خلّف تدميرا للبنية التحتية في أحيائهم، جعل من المستحيل لملمة الجراح إلا بتدخل من الخليفة نفسه، المعبِّر عن الشرعية الدينية والسلطة السياسة، تلك السلطة التي خَفَت أوجها في خلال فترات السيطرة الأجنبية- الا أن النَّاصر واستكمالا لجهود عدد ممن سبقه من الخلفاء أمثال المقتفي أعاد الأمل في استعادة الهيبة والوقار لمؤسسة النَّاصر. وهذا ما عمل على تحقيقه النَّاصر طوال فترة حكمه.

سادسا: النَّاصر ومعاش الناس وأرزاقهم

في أحداث سنة (575هـ\ 1175م) وهي السنة التي تولى فيها الناصر الخلافة، وصف الايوبي الأوضاع الاقتصادية في العراق، بقوله" فيها غلت الأسعار جدا بالعراق واشتد المحل وكثر الجدب"، محملا مسؤولية ذلك كله لظهير الدين أبا بكر منصور بن العطار صاحب المخزن الذي بدل أن يجابه هذه الجائحة "استولى على جميع المعاملات الواسطية وضمن البلاد سائرها ومنع البيع من خزائن الغلات والحبوب"[70]. كان مواجهة هذه الجائحة الاقتصادية أول ما تصدى له الناصر بعد أن تولى الحكم، ولأجل التخفيف على الناس مما لحقهم بسبب الغلاء وارتفاع أسعار، أمر ببيع الغلات والحبوب المكدس في مخازن الغلال. وفي خطوة عملية أصدر الأوامر

باستبدال المخصصات المالية للجنود بالأرزاق من الحنطة الشعر ونحوها[71]، فرخصت الأسعار على حدّ قول الأيوبي" وكثرت الخيرات، وفرّج الله سبحانه وتعالى عن الناس ما كانوا فيه من القحط والمحل، وشدة الجوع ببركة قدومه وإيالته الميمونة..... وكان الناس يسمون أيامه العيسوبية لذهاب ما كانوا فيه من شدة القحط "[72].

ربما يقول قائل إن مثل هذا الإجراء يتخذه كل من يتولى أمر الحكم، لكسب العامة والرعية، نقول ربما يكون ذلك، ولكن الأمر يقاس بتراتبيته، وتكراره، واتخاذ سياسات اقتصادية عامة، تخفف على الناس، وتوفر لهم حاجياتهم. وليس أصدق من مستويات الأسعار خلال حقبة معينة من حَكم، من خلاله نستطيع إصدار حكمًا عامًا على ذلك العهد أو تلك الفترة. إن الناظر في الجدول التالي يستطيع أن التمعن بها، سيلحظ أن السمة العامة للأسعار في عهد الخليفة النَّاصر كانت تميل إلى الاستقرار والرخص بشكل عام، على عكس السنوات التالية لحكمة، أو السالفة.

السنة	المادة الغذائية	السعر	المصدر	ملاحظات المصدر
596هـ	كُرّ[73] الحنطة	15 دينار	ابن الساعي، تاريخ، ج9، ص21	كانت الأسعار متراخية من جميع الحبوب والأقوات
596هـ	كُرّ الشعير	6 دنانير	ابن الساعي، تاريخ، ج9، ص21	رخص
605هـ	كُرّ الحنطة	10 دنانير	ابن الساعي، تاريخ، ج9، ص263	رخصت الاسعار رخصا كثيرا
605هـ	كُرّ الشعير	3 دنانير	ابن الساعي، تاريخ، ج9، ص263	رخص شديد

وقارن هذا بالأسعار في عهود لاحقة:

السنة	المادة الغذائية	السعر		ملاحظات المصدر
630هـ	كُرّ الحنطة	83 دينار	الذهبي، تاريخ الإسلام، ج13، ص658	غلاء شديد
630هـ	كُرّ الحنطة	90 دينار	الغساني، العسجد المسبوك، ص 426	غلاء شديد

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

645هـ	الخبز	ثلاثة أرطال خبز بقيراط	الذهبي، تاريخ الإسلام، ج14، ص358	غلاء شديد
646هـ	كُرّالحنطة	100 دينار	مجهول، الحوادث، ص 226.	غلاء شديد
646هـ	38 دينار	كُرّالسمسم	مجهول، الحوادث، ص 426.	غلاء

ويؤيد الأمر ما دوّنه الرحالة الأندلسي ابن جبير من انطباعات - الذي زار بغداد عام (581هـ/1186م)- والتي يمكن أن تسهم في اصدار حكم متزن، بعيدا عن الأهواء، فكانت أيامه على حد قول ابن جبير " قد استسعدوا بأيامه رخاءً وعدلاً وطيب عيش، فالكبير والصغير منهم داع له [74].

ويصيف ابن جبير – شاهد العيان – كثرت المزارع وغابات النخيل، وما لفت انتباهه من توفر الأمن في العراق، فيقول مثلا عن الطريق بين الحلة وبغداد " والطريق من الحلة إلى بغداد أحسن طريق، في بسائط من الأرض وعمائر، تتصل بها القرى يمينا وشمالا، ويشق هذه البسائط أغصان من ماء الفرات تتسرب بها وتسقيها. فحرثها لا حد لاتساعه وانفساحه، فللعين في هذا الطريق مسرح انشراح، والأمن فيها متصل "[75]. والغساني الذي نقل اتهام الخليفة النَّاصر عن ابن الأثير، نجده يشيد بسياسة الخليفة وعدله، ففي أحداث سنة (604 هـ \ 1207م)يقول : " أطلق الخليفة جميع حق البيع، وما يؤخذ من المكوس في المبيعات وكان مبلغًا كبيرًا[76].

وإلى مثل ذلك أشار ياقوت الحموي (ت626هـ\1228م) – وهو المعاصر- في وصفه لمدينة واسط "وكان الرخص موجودا فيها من جميع الأشياء ما لا يوصف بحيث أني رأيت فيها كوز زبد بدرهمين واثنتي عشرة دجاجة بدرهم وأربعة وعشرين فروجا

بدرهم والسمن اثنا عشر رطلا بدرهم والخبز أربعون رطلا بدرهم واللبن مائة وخمسون رطلا بدرهم والسمك مائة رطل بدرهم وجميع ما فيها بهذه النسبة"[77].

كما أن مصادرنا التاريخية والتي حفلت بالروايات التي تتحدث عن المصادرات التي كانت تؤخذ من كبار رجال الدَّولة والأعيان والتجار، لم تشر إلى أي منها في عهد الخليفة النَّاصر، بل على العكس من ذلك فإنه لما عُزل الوزير نصير الدين بن ناصر العلوي، عُثر لديه على ما يزيد على خمسمائة ألف دينار، سأل أن تؤخذ جميعها مقابل الإفراج عنه، لكن النأَّصر أجابه" أننا ما أنعمنا عليك بشيء فنوينا استعادته منك، ولو كان ملء الأرض ذهبا، ونفسك في آمان الله" [78].

إن إيرادنا لهذه الروايات، ليس الهدف تبرئة النَّاصر أو اتهامه، فكما تمت الإشارة إليه في أكثر من موضع أن حكم الناصر مرّ بمراحل، كل منها له ظروفه ومميزاته، لكن لا يمكن أن نعكس ما جرى في السنوات الأخيرة من حكمه لتكون مصدرًا للحكم على عهد قارب النصف قرن، فقد أقعده المرض، فاستغل بعض رجالات الدَّولة من كبار الموظفين مرض الخليفة وعدم قدرته على متابعة أمور دولته، فعسفوا وظلموا الناس. جاء في أخبار سنة (621هـ\ 1224م) أن سار صاحب المخزن الى بعقوبا فعسف باهلها[79]. وهذا ما دفع ابن الاثير الى توجه اتهام شديد للناصر:" فمن ذلك أن قرية بعقوبا كان يحصل منها قديما نحو عشرة آلاف دينار، فلما تولى النَّاصر لدين الله، كان يؤخذ منها كل سنة ثمانون ألف دينار"[80]. والظَّاهر أن ابن الأثير استغل الذي وقع في عام (621هـ\1224م) وجعله حكمًا عامًا، وأن الخليفة قد عسف ببعقوبا وأهلها. لو كان هذا الكلام سليما، لماذا لا نجد تواترًا لروايات تتعلق بالمناطق الأخرى من أراضي الخلافة العباسية والتي كانت أكبر مساحة، وأكثر حاصلًا. لم يوفق ابن الأثير في رأيه، ولعل المتصفح لكتابه سيجد هذه المقولة. جاء في حوادث سنة 604هـ\1207م) وفيها أطلق الخليفة الناصر لدين الله جميع حق البيع وما يؤخذ من أرباب الأمتعة من المكوس من سائر المبيعات، وكان مبلغا كثيرا"[81].

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

يضاف إلى ما سبق ما أورده ابن الأثير نفسه لما تعرضت إليه بغداد وأطرافها في العام 614هـ\ من فيضان مدمر بفعل فيضان نهر دجلة " وفيها زادت دجلة زيادة عظيمة لم يشاهد في قديم الزمان مثلها، وأشرفت بغداد على الغرق... ونبع الماء من البلاليع والآبار من الجانب الشرقي، وغرق كثير منه "ونبع الماء من البلاليع والآبار من الجانب الشرقي، وغرق كثير منه، وغرق مشهد أبي حنيفة، وبعض الرصافة، وجامع المهدي، وقرية الملكية، والكشك، وانقطعت الصلاة بجامع السلطان. وأما الجانب الغربي، فتهدم أكثر القرية، ونهر عيسى، وخربت البساتين، ومشهد باب التين، ومقبرة أحمد بن حنبل والحريم الطاهري، وبعض باب البصرة والدور التي على نهر عيسى وأكثر محلة قطفتا"[82].

إن كارثة بهذه الحجم تتعرض لها بغداد وريفها لا بد أن يكون لها مضاعفات ونتائج خطيرة من تدمير في البنى التحتية وكذلك تدمير وتلف للأرض الزراعية والغلال، وبالتالي تأثير مباشر على مستوى الأسعار. ومع ذلك، لم يتخل الخليفة عن دوره في مواجهتها " وظهر الخليفة للناس وحثهم على العمل، وكان مما قال لهم: لو كان يفدى ما أرى بمال أو غيره لفعلت، ولو دفع بحرب لفعلت، ولكن أمر الله لا يرد"[83].

سابعا: تقييم سياسة الناصر لدين الله في ضوء روايات المؤرخين

على الرغم من كل هذه الجهود التي بذلها النَّاصر طوال فترة حكم، إلا أن بعض المؤرخين الذين أثنوا عليه وعلى سياسته – وهذا ما اتضح من مفاصل الدراسة التي اعتمدت عفي جلها على رواياتهم- قد أشاروا إلى ظلم تعرض له المجتمع في عهده، وإلى اشتغاله بغير المفيد من الأمور كالفتوة ونحوها. وكان المصدر الأصيل لتلك الرواية هو المؤرخ ابن الأثير، رغم أنه في متن الرواية، لم يخف إعجابه بالخليفة النَّاصر، مع أنه أثنى عليه في مواضع أخرى من كتابه. يقول اين الاثير في أحداث سنة

622هـ وهي سنة وفاة الناصر لدين الله:" وكان مع ذلك رديء السيرة في رعيته، مائلا إلى الظلم والعسف، فخربت في أيامه العراق، وتفرق أهلها في البلاد، وأخذ أموالهم وأملاكهم. ومع هذا فكان له بر ومعروف وصدقات دارة. وكان يفعل أفعالا متضادة؛ عمل دار الضيافة ببغداد ليفطر عليها الناس في شهر رمضان، فبقيت مدة ثم قطع ذلك، ثم عمل دور الضيافة للحجاج فبقيت مدة ثم أبطلها، وأطلق بعض المكوس التي جددها ببغداد خاصة ثم أعادها"[84].

ثم جاء من بعده عدد من المؤرخين، والذين بالغوا في الثناء عليه، ولكنهم في الوقت نفسه، أورد نص رواية ابن الأثير ضمن ترجمة الناصر لدين الله بنصها وأشاروا إلى مصدرهم " وقال ابن الاثير". منهم ابن واصل[85]، والذهبي[86]

وفي سبيل إجلاء الأمر وتقويم سياسة الناصر، فلا بد من تقسيم فترة حكمه إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: والتي يمكن أن نسميها مرحلة الخلاص من تدخلات الحاشية في عمل مؤسسة النَّاصر، فقد كان شاهد عيان على ما يفعلونه، بل عان منه في مسألة توليه الحكم. فما هي إلا سنوات ثلاث حتى استطاع التخلص من كبارهم: أستاذ الدار ابن الصاحب" رغم أنه كان من المؤيد له" لكنه كان يرغب في ممارسة ما كان يمارسه من قبل، لذا وجد الناصر التخلص منه يخدم سياسته الاستقلالية، ومن قبله تخلص من صاحب المخزن ابن العطار. ولعل فيما أورده ابن جبير الذي زار بغداد الذي زار بغداد عام (581هـ/1186م) ما يعكس الهيبة التي وصل اليها حكم الناصر، وكيف تراجعت سطوة الحاشية، التي عادة إلى دورها وحجمها الطبيعي، عندما ينعت الوزير" " إنما له خديم يعرف بنائب الوزارة" [87].

كانت السنوات الأولى من حكمه مرحلة الإعداد للعمل، مقرونة بالكتمان، فما أن حقق ما أرد، حتى نجده سيد الموقف، يتصرف في دولته كحاكم، راسما لسياستها، لا منفذا لرغبات من حوله. وخلال تلك المرحلة أيضا بدأ يصوغ معالم سياسته لا سيما تجاه رعيه من خلالها أحكم الأمور، وضبط الموازين، وأعادت الاستقرار لمؤسسات

الدَّولة بدءًا بديوان دار خلافته، مرورا بمختلف مفاصل مؤسسات دولته. وهذا ما أشار إليه ابن واصل" وبسط الإمام الناصر لدين الله العدل، وأمر بالنداء في الناس به، وأمر بكسر الملاهي، وإراقة الخمور، وإقامة الحدود، ومنع من التظاهر بشرب الخمر والمنكرات، وإزالة المكوس المضروبة على التجار الورادين إلى بغداد، فعمرت البلاد، وكثرت الأرزاق"[88].

أما المرحلة الثانية، فكانت مرحلة رسم السياسات وتنفيذها دون تدخل من أحد، فغدا الجميع تابعًا ومنفذا لرغباته، سواء في اختيار رجال دولته، لذلك نجده طوال عهده يسمي بالوزارة إلا أربعة، والبقية " سموا بنواب الوزارة، وهذا دليل قوي على تراجع سطوة الحاشية. لذا يمكن القول إن الظروف التي تولى بها النَّاصر، كانت تحتاج إلى رجل من طراز رفيع، داهية، قادر على استغلال الفرص وتوجيهها؛ وفن السياسة هو اللعب بالمتناقضات، طالما تحقق الغاية، وتخدم المصلحة العامة للدولة. وقد نجح النَّاصر في ذلك، فاتبع سياسة الاستمالة وتقريب البعيد بالعطايا أو الوظائف، فإن لم يتحقق المراد كان يلجأ إلى الدهاء، مستغلا مكانته.

كانت ملامح سياسته الداخلية تعتمد التقريب أكثر من الترهيب، في الوقت نفسه فإن الناصر منذ البداية قدّم نفسه خليفة للجميع، مترفعًا عن المذهبية وما خلفته من فتن، فمارس دور الفقيه والمحدث، وجالس العلماء وفاوضهم مفاوضة العالم المتبحر، بل صنف في الحديث كتابًا بإسناد عالٍ، ويجيزه لرؤوس المذاهب الأربعة، والذين كلفوا بإجازته عنه لأتباعهم. والغاية لديه من ذلك واحده، كسب ولاء العلماء، تلك القوى الفاعلة في المجتمع، فمن خلالهم استطاع التقارب والانسجام مع المكون الأساسي في المجتمع.

أضف إلى ذلك فإن تبني النَّاصر للفتوة وتنظيماتها، كان خطوة سياسية استطاع من خلالها السيطرة على القوة الفاعلة في فئات العامة، ونقصد بهم الشباب، بحيث استطاع من خلالهم بناء تنظيم سياسي وعسكري، ضمَّ مختلف أطياف المجتمع، يأتمر بأمره، ويخضع في حياته وسلوكه لقواعد وأسس تنظيمية، صيغت من قبل الفقهاء، بعد أن كلف النَّاصر الفقيه ابن المعمار في وضع دستور لهذه التنظيمات، حيث ضمّن ابن المعمار ذلك النظام في كتاب أسماه " الفتوة" وفق القواعد الشرعية، يعاقب كل من خالفها بتجريده من الفتوة. أضف إلى ذلك أن هذا التنظيم لم يقتصر على العراق ومدنه، بل نجد انتشاره واسعًا في الأقاليم التي تدين بالولاء للخليفة في بلاد الشام وغيرها، بحيث حرص أمراء وحكام تلك الأقاليم على التفتي للناصر، وشرب كأس الفتوة له. "وَدخل فيه الأجلاء ثمَّ الملوك، فألبسوا الْملك العادل وأولاده سراويل الفتوة، وألبسوا شهَاب الدّين الغوري ملك غزنة والهند وصاحب كيش وأتابك سعد صَاحب شيراز، والملك الظَّاهر صَاحب حلب"[89].

في الوقت نفسه كان النَّاصر مستعدًا لتقديم شيء من التنازلات في حالة الضرورة، فقد اضطر إلى اتخاذ قرارات ترضي أتباعه لما رآه من تأثيرهم في العامة، كما الحال في إبعاد أهل الذمة عن وظائف الدَّولة، لكنه لم ينفذ القرار بحذافيره، بل بالقدر الذي يرضي غرور المتشددين من العلماء الذين أصروا على الأمر.

والمرحلة الثالثة، كانت مرحلة التراجع والتي استمرت قرابة الثلاث سنوات، فقد مرض الناصر مرضًا أقعده، وذهب بصره، وهذا ما أثبته ابن الأثير في نصوصه فقد أصيب الناصر بمرض أقعده، بل بدأ يفقد بصره "وبقي الناصر لدين الله ثلاث سنين عاطلا عن الحركة بالكلية، وقد ذهبت إحدى عينيه والأخرى يبصر بها إبصارا ضعيفا، وفي آخر الأمر أصابه دوسنطاريا عشرين يوما ومات"[90]. وأكد مرض الناصر القفطي خبر "وَكَانَ الخليفة الناصر فِي آخر أيامه قَدْ ضعف بصره وأدركه سهو فِي أكثر أوقاته" [91].

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

كان مرض الخليفة قد أوجد فراغًا سياسيًا وفتورا في متابعة أمور الدَّولة، أتاح الفرصة لبعض من رجال دولته إلى استغلال الوضع الجديد كما الحال في جور والظلم الذي مارسه صاحب المخزن ضد أهل بعقوبا كما جاء في رواية ابن الأثير نفسه في أحداث سنة 621هـ أي قبيل وفاة الناصر بسنة تقريبًا.

إن اصدار حكم على نصف قرن من عمر الخلافة العباسية، ايجابًا أو سلبًا، يتنافى مع الواقع، وفيه ظلم بيّن، فلا يمكن القول بمثاليه مطلقًا، أو سلبية كذلك. فلا بد عند تقويم هذه الفترة من دراستها وفق الخط الزمني عمومًا، ثم تقاس إيجابياته وسلبياتها، وفق النتائج التي انتهت إليها تلك المرحلة، مع مراعاة الظروف الموضوعية التي عاشتها الخلافة العباسية داخليًا وخارجيًا.

وخلاصة القول، أن الرواية السلبية عن النَّاصر كان مصدرها واحد، وهو المؤرخ ابن الأثير، والتي تناقلها المؤرخون فيما بعد، دون تحقق، والدليل على ذلك أنهم أوردوا النقيضين (المدح والذم) معا. وقد رد المرحوم رد مصطفى جواد على آراء ابن الأثير، بقوله: " ولم يوفق ابن الأثير للصواب في نقده هذا؛ لأن النَّاصر كان قد وحد الأمة الإسلامية بمساعيه، ومنها الفتوة وأعاد إلى العرب عزتهم المسلوبة والى الإسلام قوته وبهجته. هذا وان نظر مربي الأمة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها يختلف بالبداهة عن نظر مؤرخ محدود الفكر متأثر بالحوادث الشخصية والحوادث السياسية" [92]. وأضاف جواد وانه – أي النَّاصر " كان قد أتم توحيد العالم العربي وتوحيد العالم الإسلامي وبلغ فيها درجة التقديس، فقد دامت خلافته سبعة وأربعين عامًا وهي أطول مدة خلافة لبني العباس وترك من المآثر والآثار ما لا يحصى وفرة ولولا نزق سلطان خوارزم لنجى العالم الإسلامي من طوفان المغول وطغيانهم

ومجازرهم البشرية وعدوانهم وعبثهم وإفسادهم إلا إن ذلك السُّلطان الأحمق جنى على خليفة المسلمين وعلى نفسه ومملكته والعالم الإسلامي"[93].

وذكر فاروق عمر عن سبب تحامل ابن الأثير، بأن الأمر عائد لميوله تجاه أتابكية الموصل _ بقايا الزنكيين _ بصفة خاصة، وذلك بحكم نشأته في الموصل موطن الزنكيين، الذين كان يتحيز لهم، وإحجامه عن ذكر فضائل غيرهم، فهو يغمز ويلمز حين يذكر الخليفة النَّاصر وصلاح الدين الأيوبي كذلك [94].

الخاتمة:

لم يكن من مقاصد الدراسة تقديم صورة مثالية لشخص الخليفة النَّاصر وعصره، بقدر ما هي محاولة لدراسة توجهاته وسياسته التي استطاع من خلالها توحيد جبهته الداخلية، والتي انعكست على أراء المؤرخين تجاه خلافته الممتدة قرابة سبع وأربعين سنة، شهدت محطات متنوعة، تبعًا لمقتضيات المرحلة، فلا يمكن أن نحاكم النَّاصر على قرار اتخذه في فترة حكمة الطويلة، ونعتبره الفيصل. لقد تدرجت قراراته تبعًا لسطوته وتمكنه، فنجد قرارته في بداية حكمه محكومة بما تمليه حاشيته التي أوصلته للحكم، لذلك نجده مكبلًا بمخلفات الماضي من تحكم وتدخل الحاشية في قراراته. هذا الإرث المتراكم مرت عليه قرون، بعد أن كان خلفاء العصر العباسي (فترة الضعف) قد تخلوا عن صلاحياتهم مجبرين أمام سطوة العنصر المختلفة: الأتراك، البويهيين، السلاجقة. صحيح أن العصر العباسي الأخير شهد محاولات جادة للتخلص من هذا الإرث، لكنهم لم يحققوا كل النتائج التي يرغبون بها، لكنهم بنوا لبنات متراكمة في سبيل استعادة هيبة الدَّولة، والتي سار عليها الناصر وجنى أوكلها.

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

الهوامش

1) حول آلية اختيار الناصر لكبار موظفي دولته، انظر: محمد بن علي بن طباطبا ابن الطقطقى، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، 1966م، ص39.

2) محمد بن أبي المكارم ابن المعمار، الفتوة، تحقيق مصطفى جواد وآخرون، مطبعة شفيق، بغداد، 1958م، ص145.

3) عبد الرحمن بن محمد، ابن خلدون، المقدمة، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، 1988، ج1، ص13.

4) علي بن أبي الكرم، المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ج10، ص97؛ ظهير الدين علي بن محمد بن الكازروني، مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى بني العباس، تحقيق مصطفى جواد، مطبعة الحكومة، بغداد، 1970، ص242.

5) أبو عبد الله محمد بن محمود ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد، منشور مع تاريخ بغداد، تحقيق مصطفى عبد القادر، عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997، ج15، ص103.

6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص443؛ الأيوبي، مضمار الحقائق، ص4.

7) محمد بن سالم ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، المطبعة الأميرية، 1957م، ج2، ص92.

8) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص443.

9) يوسف بن قزأوغلي، المعروف بسبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، حيدر آباد الهند، مطبعة مجلس المعارف العثمانية، (1951-1952)، ج8، ق2، ص635؛ ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص247.

10) عن جهود الخلفاء العباسيين في سبيل استعادة نفوذهم وسيطرتهم، انظر: Rashad, Abdul munim. (1963). The Abbasid Caliphate (575-656HD\1179-125) ,

London، University of London, 1963, p22-6 ؛ محمد صالح القزاز. الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير، النجف، مطبعة القضاء، 1971، ص40-78.

11) عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، بيروت، دار الكتب العلمية، 1995، ج18، ص96.

12) للمزيد، انظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج18، ص111- ص118؛ علي بن ناصر الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، نشره محمد إقبال، لاهور، الهند، 1933؛ ص134-140

13) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص44.

14) حول ذلك، أنظر: ابن الأثير، الكامل، ج9، ص476؛ ج10، ص89، ص129، ص131.

15) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص44 Levy, Reuben , Baghdad Chronicle, Porcupine Preesm, Philadelphia,1979, 225).

16) ابن الجوزي، المنتظم، ج18، ص196.

17) سعيد عاشور، ظل الخِلافة العباسية في الحروب الصليبية "، منشور ضمن كتاب بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية، عالم الكتب القاهرة، 1987م، ص472.

18) مراد وقادر، جزيل ونزار، دور الخِلافة العباسية في العلاقات السياسية بين القوى الإسلامية (570-600هـ\ 1179-1203م (، مجلة دراسات (العلوم الإنسانية)، الجامعة الأردنية، عمان، مج21، ع5، ص405.

19) يؤكد ذلك ما قاله ياقوت في وصف الكرخ "وأهل الكرخ كلهم شيعة إمامية لا يوجد فيهم سنيّ البتة". معجم البلدان، ج4، ص448.

20) ابن الساعي، تاريخ، ج9، ص150

21) مجلة بالجانب الغربي من بغداد، ومجاورة لقبر معروف الكوفي، على بعد ميل من دجلة. ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص374.

22) إحدى كبريات محلات الجانب الغربي، مقابل سوق المدرسة النظامية. ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص340.

23) ابن الساعي، تاريخ، ج9، ص152.

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

24) وقد توالت الفتن منها ما وقع سنة 361هـ، وكذلك في السنوات 382هـ، 406هـ، 412هـ،414هـ ابن الأثير، الكامل، ج7، ص455، ص610، ص778، ص759.

25) محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003.ج11، ص8 (نقلا من تاريخ ثابت بن سنان المفقود).

26) ابن الأثير، الكامل، ج7، ص246.

27)عماد عبد السلام رؤف، مدارس بغداد في العصر العباسي، مطبعة دار البصري، بغداد، 1966، ص34-ص35.

28)وصف ابن جبير انتشار المدارس ببغداد بقوله:" والمدارس بها نحو الثلاثين، وهي كلها بالشرقية، وما منها مدرسة الا وهي يقصر القصر البديع عنها وأعظمها وأشهرها النظامية وهي التي ابتناها نظام الملك، وجددت سنة أربع وخمس مئة. ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات مُحَبَّسة تصير الى الفقهاء المدرسين بها، ويُجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم". ابن جبير، الرحلة، ص183.

29) ياقوت، معجم الأدباء، إعداد أحمد شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، ج4، ص1677.

30)عمر بن أحمد بن هبة الله، ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، دمشق،ج9، 4238.

31)محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985، ج14، ص354.

32)أحمد بن محمد بن إبراهيم، ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، ج5، ص314؛ عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، طبقات

الشافعية الكبرى، تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، ط2، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، 1413هـ، ج8، ص382.

33)عبد الرحمن بن أحمد ابن رجب الحنبلي، ذيل طبقات الحنابلة، تحقيق عبد الرحمن العثيمين، مكتبة العبيكان، الرياض، 2005، ج3، ص153.

34) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، 251؛ الذهبي، سير، ج22، ص216؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج3، ص153.

35) محمد بن علي بن طباطبا، ابن الطقطقى، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، 1966م، ص322.

36) فقيه شافعي، درّس بعد أبيه بمدرسة فخر الدولة بن المطلب، ثم تولى تدريس النظامية، ثم أسند له منصب قاضي القضاة، وبقي على ذلك إلى أن توفي الخليفة النَّاصر فلما تولى الظاهر عزله، ثم ولي نظارة المارستان العضدي، توفي سنة 631هـ مجهول، الحوادث، ص63، ص72.

37)الأيوبي، مضمار الحقائق، ص73؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان،8، ق1، ص378.

38) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص74.

39) ابن الساعي، تاريخ، ج9، ص167.

40)وقد قام بتحقيقه ونشرة بدري محمد فهد، وقد شاركه في تخريج الأحاديث عبد الكريم الدريني، دار الفكر، 2011.

41) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج13، ص21.

42) المصدر نفسه، ج13، ص686.

43) أبو محمد عبد الرحمن أبو شامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، صححه محمد الكوثري، بيروت، دار الجيل، ج1،ص93.

44) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج13، ص686.

45)المصدر نفسه، ج13، ص14.

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

46)محمد بن محمود ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، منشور مع تاريخ بغداد الأجزاء (16 – 20) ، بيروت، دار الكتب العلمية، 1997، ج 17،ص159.

47)أحمد بن إسماعيل بن يوسف القزويني، فقيه أصولي واعظ. ولد بقزوين. قدم بغداد وتولى التدريس بالنظامية. كان وفاته سنة 590هـ عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، ط2، بيروت- دار هجر، 1413هـ،6، ص7-11.

48) الأيوبي مضمار الحقائق، ص120.

49) على بن أنجب ابن الساعي، نساء الخلفاء من الحرائر والإماء، تحقيق مصطفى جواد، مصر، دار المعارف، (د.ت)، (مقدمة المحقق)، ص9.

50)أحصى العبود أكثر من عشرين من الشعراء ممن كان ضمن شعراء الديوان. عبد الكريم العبود، الشعر في العراق من سقوط السلاجقة إلى سقوط بغداد، منشورات وزارة الإعلام، بغداد، 1976، 89-ص91.

51)محمد بن عبيد الله، المعروف بسبط ابن التعاويذي، الديوان، تحقيق مارجليوث، مطبعة المقتطف، القاهرة، 1903م، ص414.

52)سبط ابن التعاويذي الديوان، ص409.

53) ويسمى رباط الخلاطية، بناه الخليفة النَّاصر لزوجته سلجوقة خاتون سنة584هـ على شاطئ دجلة في الجانب الغربي من بغداد. ابن الأثير، الكامل،12، ص26؛ الإربلي، خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك، وقف على طبعة مكي جاسم، بغداد، مكتبة المثنى، 1964، ص282؛ جواد، " الربط البغدادية وأثرها في الثقافة الإسلامية "، مجلة سومر، المجلد العاشر، الجزء الثاني، 1954م، ص234.

54)أنشأه سنة 589 هـ، في محلة الحريم الطاهري. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان،8، ق1، ص422؛ جواد، الربط البغدادية، ص242.

55) أشار ابن الساعي إلى أن النَّاصر همّ بترك الخِلافة والانقطاع للتعبد، وكتب بذلك توقيعاً قُرئ على الأعيان. وقد وجد بشار عواد هذا التوقيع في كتاب ابن الساعي أخبار الزهاد لموجود في دار الكتب المصرية، ونشر بحثاً بعنوان " العثور على أثر مفقود لابن الساعي"، مجلة المورد، بغداد، عدد3، 1994، ص299ز.

56) ابن الساعي، تاريخ،ج9، ص120.

57)محمد بن سعيد ابن الدبيثي، ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد، تحقيق بشار عواد، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2006، ج4، ص120.

58) مجهول، الحوادث، ص86 -7؛ إسماعيل بن العباس الغساني، العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، تحقيق شاكر عبد المنعم، ط1، بغداد، دار البيان، 1975، ص473.

59) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص132؛ ابن واصل، مفرج الكروب،2، ص155؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص192.

60) ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد، ج1، ص56.

61)المأمونية: من محلات بغداد، تنسب إلى الخليفة المأمون تقع بين محلة نهر المعلى ومحلة باب الأزج. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص44.

62)ابن الساعي، تاريخ، ج9، ص152.

63) ابن أبي الدم، التاريخ المظفري، ورقه 112. نقلا عن جواد، مقدمة كتاب الفتوة، ص53.

64) الفتوة، ص123.

65) ابن الساعي، تاريخ، ج9، ص229.

66) جواد، مقدمة كتاب الفتوة، ص58.

67) يحيى عبد الهادي، الفتوة في العصر العباسي الأخير (575 -656هـ(رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، 1992م، ص137.

E-ISSN : 2588-2090
ISSN: 1111-3707

68) معن مقابله، جهود الخلفاء لإحياء الخِلافة (512 – 622 هـ) رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، عمان، 1999م، ص172.

69) عبد الهادي، الفتوة ص137.

70) الأيوبي، مضمار الحقائق، ص3.

71) المصدر نفسه، ص11.

72) المصدر نفسه، ص11.

73) الكُـرَّ: مكيـال، بـابلي الأصـل، يعـادل 2700 كغـم. فـالتر هنـتس، المكاييـل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، 1970، ص69.

74)ابن جبير، الرحلة، ص182.

75) المصدر نفسه، ص170

76) الغساني، العسجد، ص322.

77) ياقوت، معجم البلدان، ج5، ص350.

78) الغساني، العسجد، 322.

79) المصدر نفسه ، ص399- 400.

80) ابن الأثير، الكامل، 10، ص401.

81) المصدر نفسه 10، ص266.

82) المصدر نفسه ، 10، ص266.ص312.

83) المصدر نفسه ، 10، ص266.ص312.

84) ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص400.

85) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص158.

86) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج13، ص686.

87)الرحلة، ص181.

88) مفرج الكروب، ج2، ص91.

89) خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (ت764هـ\1362م) الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، 2000م، ج6، ص196.

90) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص400.

91) علي بن يوسف بن إبراهيم القفطي (ت646هـ\1248م) إخبار العلماء بأخبار الحكماء، تحقيق إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005 م، ص165.

92) جاء ذلك في تقديمه لكتاب الفتوة لابن المعمار الحنبلي، ص72.

93) مصطفى جواد، في التراث العربي، قدم له وأخرجه محمد شلش وعبد الحميد العلوجي، منشورات وزارة الإعلام، بغداد، 1975، ج1، ص29.

94) فاروق عمر، النهوض العربي في العراق والأقاليم المجاورة في العصور العباسية الأخيرة، منشورات جامعة بغداد، بغداد، 1989،ص186.